(57)

القفز طيلة النهار

في حياتنا التي نسميها اليوم معاصرة وحديثة وبغيرها من الألقاب والأسماء، يركض الناس طيلة الوقت، يركضون منذ اللحظة التي يفتحون فيها أعينهم على ضوء النهار، ينسون حتى أن يحمدوا الخالق، لأنه منحهم فرصة التمتع بيوم آخر في الحياة.. ينسون أن يتأكدوا من أنهم لم يفقدوا شيئاً منهم أثناء النوم.. هم يقفزون من أسرتهم إلى الحمام، إلى خزانة الملابس، إلى المرآة.. إلى المطبخ، ومن ثم إلى السيارة ليبدأوا مشوار اللهاث الحقيقي حين تلامس عجلات سياراتهم إسفلت الشارع خارج المنزل، وحين تلامس عيونهم تفاصيل الفضاء الخارجي، إنهم يقفزون من السرير إلى السرير، ثم

ينسون ما حدث في المسافة بينهما!! في عالمنا اليوم، يركض الناس بعيداً عن ذواتهم، بعيداً عن أرواحهم، بعيداً عن نبض إنسانيتهم بمعنى آخر كأنهم يتبرأون من حرية قلوبهم، ويمنحون أنفسهم للاجدوى، للهاث الحياة الذي لا يمكن إيقافه أبداً، لأنه لم يحدث أن توقفت عجلة الحياة عن الدوران يوماً منذ أن خلق آدم، وهكذا ستبقى لملايين قادمة من السنين.. نحن فقط من يعتقد أو يصدق بأن شيئاً خطيراً سيحدث في الخارج، أو سيفوتنا إذا لم نستمر في الركض طيلة الوقت، بعيداً باتجاه القبض على الريح، باتجاه الصراعات، وباتجاه العزلة! نعم، فنحن حين نلهث جرياً في الخارج تفوتنا تفاصيلنا الإنسانية، تفوتنا علاقاتنا الحميمة، تفوتنا الأمسيات، ولمَّات الأصحاب، تفوتنا جلجلة الضحك والأحاديث، تفوتنا نعمة التحديق في تفاصيل الأحبة الذين لا يتغيرون، لأننا نراهم كما هم يوم كانوا صغاراً نجري وإياهم في أزقة الأحياء المتواضعة والدافئة، والمبللة دائماً بمطر الشتاء الذي لم يكن ينقطع أبداً.

حين نجري طوال النهار، وكل الوقت لنحارب الزحام، وحرارة الجو، وضغوط العمل، ومتطلبات المنزل، وفواتير مدارس الأولاد، وأقساط السيارة.. فإننا ننسى بعد زمن أشياء مهمة، لقد انتقلت إلى حي جديد ومنزل

آخر يموج بالبذخ منذ سنوات أليس كذلك؟ فهل تعرف جارج جيداً، متى زرته لآخر مرة؟ هل تعرف حقاً أنه مازال في منزله أو أنه لم ينقل للمستشفى لمرض ألم به؟

منذ متى لم تسأل عن صديق مشى معك مشوار الدراسة خطوة خطوة، أو شاركك أياماً من العمر؟ متى كانت آخر مرة جلست فيها باسترخاء تام لا تفكر بالخارج الهادر بالفرص والصفقات والمهرجانات والعروض، وأولئك الذين يتصارعون خلف باب مكتبك؟ متى كانت آخر مرة فكرت فيها أن تقضي سهرة جميلة مع جيرانك لأنهم جيرانك، لا لأي سبب آخر! هناك من مر عليه دهر ولم يسمع صوت والدته، أو شقيقه، لم يسأل عنهما، فكيف يمكنه أن يضع رأسه مطمئناً من غضب الخالق، كيف يعيش هانئاً لحظات يومه، كل شيء بعيد عن رضا الوالدين بهتان! كم منا متصالحاً مع نفسه، راضياً بما بين يديه وما بين الأفق وعينيه، ألا نحتاج أن نراجع أجندتنا الإنسانية؟

(58)

ذاكرة الأمكنة

لا يصبح للأمكنة معنى ورائحة إلا حين نسكنها.. الأمكنة الفارغة لا حياة فيها، ولذلك مرضت أمي طويلاً حين تركنا منزلنا القديم وانتقلنا إلى هذا الحي الجديد الذي نقطنه الآن، إنها لا تعرف جيرانها ولا علاقة لها بالبيت الجديد، لقد غادرت منزلاً عاشت فيه لأكثر من ربع قرن، هي لم تغادر غرفاً وجدراناً وأبواباً عتيقة، لقد غادرت ذاكرتها عمرها، ضوضاء صغارها الذين ربتهم وكبروا في ذلك المنزل، لقد راكمت هناك كل العمر والذاكرة، وحين أعود بين الحين والآخر إلى منزلنا القديم أتذكر جلسات أمي بين الشجيرات التي طالما اعتنت بها، وتسقط من عيني دمعة على شجيرات الفل

التي قضت أزمنة طويلة وهي تربيها وتستنبت منها أشتالاً أوزعها في مختلف الحديقة وأتفهم مرض أمي حين أتجول في حجرات المنزل، وأتذكر تاريخ كل قطعة أثاث، ومناسبة كل تغيير..

أتذكر كم شهد ذلك المنزل من أحداث لا يمكن تكرارها! للأمكنة سحرها وسطوتها، أمكنة لا يمكن نسيانها، وأمكنة لا يمكن مغادرتها، وأمكنة تنام وتصحو في دواخلنا كل يوم، أمكنة تشم رائحتها حتى بعد سنوات من مغادرتها، وأمكنة تبقى تفاصيلها تلون الذاكرة رغم أنها انمحت من أرض الواقع، تحمل الأمكنة جزءاً منا، من أعمارنا، من ضحكنا، من شقاواتنا من تاريخنا، طفولتنا، قصص عشقنا، حكايات أصدقائنا الذين سرقهم الزمن وتقاسمتهم المسافات، وحكايات الوجوه القديمة التي تركت بصماتها في حياتنا.. لا تنسى أمي «فريج الراس» أو منطقة «الراس» في ديرة، حيث المكتبة المركزية ومدرسة الأحمدية والفرضة (الميناء) وبيوتات العائلات المعروفة في بر ديرة.. مازالت تتذكر أدق التفاصيل رغم مرور خمسين عاماً على مغادرتها ذلك الحي، مازالت أسماء النساء والرجال، مواقع البيوت، وأصحاب الدكاكين، ومازال الغواصون والطواويش البحارة، النواخذة، التجار، المطاوعة، الفقراء، الأغنياء، شقاوات البنات وهن ذاهبات لدرس

القرآن.. مازال كل ذلك عالقاً في ذاكرتها وكأنه حدث بالأمس، أو كأنها أغلقت حي «الراس» بالمفتاح مساء البارحة وهاهي تفتحه كل صباح لتغرف من عبقه زاداً للعمر المتبقي!

نقلته لي أمي عشق الأمكنة، أصابتني عدوى الولاء لحارات اللهو وبيوت الطفولة، أصبت بحدة الذاكرة، ذاكرة الصورة والصوت، ذاكرة اللون والرائحة، فأنا أتذكر تماماً حي أو فريج «عيال ناصر» حيث قضيت سنوات طفولتي وسنوات الابتدائية الأولى.. أتذكر بيتنا والدرج الموصل للسطح حيث علقت قدمي ذات يوم بشيء ما فتدحرجت من أعلى السلم إلى أسفله صارخة من الألم، وإذا بأمي وجدتي تأخذانني لرجل كبير السن عدت من عنده وجبيرة قاسية تقيد ذراعي التي بقيت زمناً مربوطة ومدلاة على صوري بخيط مربط في عنقي!! أتذكر بقرات جدتي، ومطبخها الدافئ حيث كانت تعد لنا حليب البقر والخبز الساخن كل صباح..

أتذكر صوت المطر وهو يروي تراب الحوش النظيف وشجرة اللوز الكبيرة التي تقع في مدخل المنزل، أتذكر البحر الذي جاورناه وكان منزلنا أول المنازل المطلة عليه بعد أن تساقطت منازل عديدة لجيران سبقونا بترك الحي بعد حوادث الانهيارات تلك.. وأتذكر ورشة خالي «عبيد» صانع السفن

الذي كان يستقبل في الهواء الطلق أعداداً من الأجانب الذين يأتون ليلتقطوا له الصور وهو يمارس مهنته بصبر ومحبة، بلا مخططات ولا رسومات، فيبدع سفناً خشبية مشهورة في قاموس أهل البحر والتجارة، كان أولئك الأجانب حين يفدون إلى الحي يثيرون عندنا سُحباً من الأسئلة حولهم، حول ملابسهم الغريبة، ونسائهم شبه «العاريات»، وأدوات التجارة القديمة التي كانوا يطلبونها من خالي ليحتفظوا بها، كانوا سياحاً، وصحفيين، ومراسلي جرائد إنجليزية وفضوليين..

كانوا حين يملأون الورشة المفتوحة في الهواء الطلق نركض إلى أفنية المنازل نتوارى فيها، ونظل نراقب تصرفاتهم من ثقوب الأبواب الخشبية. ذاكرة الأمكنة.. هي نحن.. هي أعمارنا التي توارت في الأزمنة وراء أبواب تلك الأمكنة.

(59)

ذاكرة كان يا ما كان

في عالمنا العربي يشبهون السياسة بالأفيون، تلك حقيقة، ولكثرة ما أدمنت الشعوب العربية سياستها وسياسييها، صارت السياسة، كتابة واهتماماً تبدو مملة ومضجرة، ومع ذلك تبقى ضرورية، ولنقل إن قليلاً من السياسة يكفي، وكثيراً من الفرح خارج دوائرها السوداوية مطلوب، لقد تعب الكبار من تعبهم، تعبوا لكثرة ما يقرأون أفكارهم ويروجونها، تعبوا وهم يمضغون انكساراتهم، ويفتحون أدراج الذاكرة كل لحظة تلوح فيها امرأة مكسورة أمام بقايا منزل في قرية فلسطينية، أو يلوح فيها رجل عراقي يقيده أمريكي من يديه عاصباً عينيه ومصوباً تجاهه رشاشاً عملاقاً، بينما تضج مئذنة في

بغداد بنداء «الله أكبر»! الكبار أصابهم الإعياء وهم يتأملون وجوههم في مرايا الوقت المكسورة، فحين تنكسر المرايا يصير لكل وجه ألف وجه مقلوب، تعب الكبار، أما الصغار فقد فتحوا قلب الآتي واختفوا فيه بانتظار الذي قد لا يأتي أبداً. يضج قلبي بضوضاء صغار بلا ذاكرة، بلا شجون، وبلا شيخوخة مبكرة، بلا أيام مؤثثة بالغبار وبالعداوات، يمتلئ خاطري بالصغار الذين تنهمر الأحلام من مناماتهم وهم نيام لكثرة ما يركضون خلف الفراشات والخراف البيضاء وطيور النورس، لكنهم حين يفيقون لا يجدون على أصابعهم بقايا اللون .

ولا حتى رائحة نوارس البحر، ولا يجدون في جيوبهم حين يتحسسونها بقايا أصوات الموج.. يكتشفون حين يفيقون أن الكبار لصوص كبار بامتياز الوصاية، ملهمون في فن السرقة، فهم يسرقون حتى فراشات الصغار، ويحفظون الأحلام في خزائن الأيام. ومع كل طفل يخبئ بين أصابعه اللون، وفي قلبه صوت الأذان، أتحول من الرائي إلى المرئي، أصير رذاذ مياه الينابيع، أصير ضياء نهارات القرون، أنجدل كطين الأرض المغسول بماء المطر المعجون بذاكرة الأيام القديمة، تلك الأيام المعطرة بأصوات الأمهات الجميلات السائرات على كثبان النهار، حافيات يقطعن اللون والصوت

والصمت والتعب، ليقطفن الحكايا من أفواه الموج، من لون الزبد الأبيض، من قلوب الرجال الصامتين على سيف البحر، ومن مداخل الأزقة الضاجة برائحة الصغار. الأمهات الجميلات يقطفن الحكايات الجميلة من أشجار السماء، يخبئنها في سلة العمر للصغار الذين ينتظرون الحكاية قبل النوم على ابتهال «كان يا ما كان».

وأقول: أريد أن أكون طفل الحكاية الراكض في حقول السماء، يجمع الأحلام لسلة جدته وأمه، تلك السلة التي يتذكرها جيداً، والتي غالباً ما تكون مملوءة بالحكايات، مثل العمر الذي كلما امتلأ بالفرح يفرغ سريعاً ككف صبية حلوة كالمهرة الجامحة لا تستطيع أن تخبئ القمر في فضاء خطوط كفها الناعم. وأتساءل: أين يذهب الأطفال الذين يشبهون النبوءة، وأين يذهب الشعراء الطيبون، وأين يغادر الأنقياء الأتقياء الذين يرسمون الحياة كبشارة، ويرسمون البشارة كقلب أم؟

أين يذهب العاشق الجسور حين يضيق الفضاء بجلجلة قلبه، ويصير في السماء قنديلاً معلقاً اسمه نجمة الصباح؟ فهل يعرف الليل تاريخ النجوم؟ فالنور بلا تاريخ، أما الليل فقد صار ليلاً كي تتمخطر على صفحة السماء فيه نجمة مسافرة في بحره، تساهر عاشقاً جميلاً في غرفة بلا ستائر مخملية.

وأتعجب: أمازلنا فرح قلوب من نحب؟ أمازلنا نشبه أطفال أمهاتنا الذين كنَّاهم منذ زمان؟ هل لاتزال الأمهات الجميلات حين يمررن أصابعهن الرشيقة في شعر رؤوسنا يتذكرن كيف كانت نجوم أحلامهن تتغامز على حواف المساء الذي يداعب جفوننا كي نفتح أسراره ونلج النوم؟

هل لانزال أبناء أمهاتنا اللائي حلمن بنا؟ فياترى كم ألماً نقشناه في عصب قلوبهن، كم دمعة ذرفت عيونهن وترشفها القلب؟ هذا القلب المربوط بالصبر الذي يشبه صبر الصابر أيوب، الراقد حارساً على كهف الأحلام التي مازالت تتقافز على مخدات الأمهات كل مساء، ياترى أما زلنا نحلم؟ لمن وبماذا يحلم الصغار الذين ما عادوا صغاراً؟

obeikandl.com

(60)

حين تؤلمك الذاكرة

كيف يبدو هذا الذي يمكن تسميته بألم الذاكرة ؟ هل جرب أحدكم هذا الألم ؟ لقد شعرت به ذات مساء شتائي وأنا أعزي صديقة لي بوفاة والدها، هو الشتاء يفتح شهية الحكايات والمواجع معاً، ففي ذلك المساء وأنا أقف لتحية النساء اللواتي جئن للعزاء أيضاً، انفتحت ذاكرتي على عمر كامل من الوجوه والصداقات والصديقات، وللحظة اكتشفت أن ذاكرتي خانتني كثيرا أو أن الزمن الذي حجب تلك الوجوه التي لم أتذكرها كان بعيداً أو هكذا خيل لي ، هناك عمر وسنوات سقطت في المسافة بين زمنين ولحظتين، وما من سبيل لتعديل أي شيء، فبين زمن الفراق وزمن اللقاء هناك دائماً فائض مفقود

obeikandl.com

من الزمن، قلما يشعر به الناس، لكنه المسؤول الأول عن ضياع الأسماء والملامح والتفاصيل من الذاكرة ! أو ربما هو السبب ونحن المسؤولون !!

حين كانت الوجوه تتوالى أمامي كان من بقي منها على حاله في تجاويف الذاكرة يؤلمني مروره جداً ، إن أكثر ما كان يؤلمني هو ذلك السؤال الذي سمعته مراراً : أين أنتم ؟ وكنت أعيد ترديد السؤال بشكل آخر : نعم أين نحن من بعضنا ؟ أين اختبأ في هذا العمر الذي عبر بيننا ؟ كيف كنا أحباباً وصحبة دراسة وعمل لا نفترق في تلك الأيام وكيف مرت كل هذه السنوات من دون أن نلتقي ؟ لابد أن غيبوبة ما ابتلعتنا أو أصابتنا بفقدان الذاكرة، أنا هنا أتحدث عن جيل أنتمي إليه ويعرفني جيداً وقد مر بتحولات المدينة الصعبة التي اكتسحت في طريقها الكثير من العلاقات الاجتماعية، لكن التحولات ليست وحدها الملامة فنحن قد استسلمنا كثيراً لتجليات تلك التحولات كل بحسب ظروفه !

حين كانت صديقتي الواقفة بجواري تذكرني ببعض الأسماء التي فرت من ذاكرتي – من دون علمي ومن دون إرادتي – كنت أشعر بألم شديد وبأن مجرد نسيان تلك الأسماء ومن ثم استعادتها في تلك الوقفة يهز ذاكرتي ويؤلمها فعلاً، ولا أدري لماذا شعرت بالألم هل لأن عملية التذكر مؤلمة جسدياً

أم لأنها تثير فينا تلك الحكاية القديمة الأزلية حول العمر والسنين التي تمر ؟ فنحن ننتبه فجأة إلى أن الأيام قد مرت وأننا كبرنا وبدأنا ننسى وأننا أثناء ذلك أسقطنا أو أهملنا أموراً كانت بالنسبة لنا كالماء والهواء ثم وفي وهج الاندفاع اعتدنا على أن نعيش بدونها حتى نسيناها أو على الأقل وضعناها جانبا من دون أن ندرك ذلك.

نتساءل بماذا انشغلنا كل تلك السنين ؟ ماذا فعلنا في كل تلك الصباحات الكثيرة والنهارات العديدة ، والأمسيات التي بلا عدد ؟ أين كنا نذهب وفي أي شيء كنا نسكب رحيق العمر ؟ خلف المكاتب بلا شك وفي الثرثرة والشكوى والملل والرغبات والطموحات والصراعات والجري خلف الأحلام والأوهام معاً ! زمن طويل مر بنا ونحن نعمل ونجتهد ونؤسس هذه الكيانات التي أصبحناها أخيراً، زمن طويل ونحن نتلقى التقدير والتكريم والمحبة والاحترام كما تلقينا الصدمات وعشنا الخلافات على حد سواء، هو العمر يمضي قاطعاً الضفتين قد حمل لنا من هنا ومن هناك الكثير ومنحنا ما نتمنى وأكثر أحياناً لكنه أفقدنا أشياء أخرى جميلة كان فقدناها ثمناً !

بالرغم من الألم ذاك إلا أنه الم حميم دافئ يجعلك أقرب إلى ذاكرتك ونفسك، أكثر قدرة على فحص أيامك والعابرين فيها ، فالأيام لا تمنحك

حكمتها أو صلابتها من دون أن تدفع ثمنها كاملاً، حتى إذا مررت بألم الذكرة خرجت منه أكثر وعياً بما أنخرت وأكثر رضا بما أنت عليه اليوم، وأكثر يقينا بأن الأصدقاء مخازن الأيام وحفاظ العمر وبأنهم ومهما طالت غيبتهم لا يتبددون، لكنهم يزهرون في حدائق أعمارنا في غفلة منا !

بعد نشر هذا المقال كتبت لي صديقة جميلة تقول : « استفزازية أنت يا عائشة تسحبين مني الدموع بكل سهولة ، مقالتك اليوم حول ألم الذاكرة آلمتني فعلاً كأنك تتحدثين فيها عما حصل معي بالأمس ... » ثم هاتفتني لتحكي لي عن ذلك الصديق الذي ظل يلاحق سيارتها من مكان إلى مكان فقط ليقول لها أين اختفيت في تلافيف هذا الزمن ، صباحك أيام حلوة تقاسمناها ، لكنها ظلت تهرب منه ظناً منها بأنه أحد المعاكسين ، ظل مستمراً في ملاحقتها حتى موقف سيارات البناية التي تسكنها ، وهناك تبيت ملامح الصديق الذي لطالما تقاسمت معه نهارات عمل طويلة وجلسات حلوة هنا وهناك ... قالت لقد تبينته بصعوبة فقد مر زمن طويل، إنها الذاكرة حين تخوننا وحين تباغتنا ، تؤلمنا في الحالتين .

(61)

المنبوذون

زميلي العزيز في العمل يقول دائماً «الإنسان كائن مستطيع بغيره»، حين يرددها أشعر أنه يعيد إنتاج عبارة ابن خلدون الشهيرة «الإنسان كائن اجتماعي بالفطرة» بشكل أو بآخر ، فالإنسان لا يحتمل الشعور بالوحدة، أو الرفض أو النبذ مهما بلغ اعتزازه برأيه ونسبه واعتداده بنفوذه وماله وقوته الجسدية، فهو يظل في نهاية الأمر كائناً بحاجة إلى الآخرين، بحاجة إلى التواصل والحديث والضحك وتبادل التفاصيل الحميمة والبسيطة، كذلك تبادل الأدوارفي بعض الأحيان والمتع وحتى الخلافات والصراخ، حيث الإنسان كائن متطلب، ضعيف تقتله الوحدة وتستبد به الأحزان وقد تطيحه

obeikandl.com

أرضاً حالة الاحتياج لشخص صادق ، تتوقف متطلباته على حجم ودرجة ما ينقصه، لا ما يمتلكه من أشياء.

ما الذي يمكن أن يبحث عنه إنسان ثري جداً، متنفذ، مثقف، أرستقراطي، ومحاط بحياة كاملة من الخدم والفخامة؟ لن يحتاج شيئاً إلا إذا كان عاجزاً أو محروماً، وهذا ما وجد نفسه فيه ذلك الأرستقراطي الفرنسي فيليب الذي يعاني شللاً كاملاً لا يستطيع معه سوى تحريك رأسه فقط، هو إذن بحاجة ماسة ودائمة إلى عناية شخصية من الألف إلى الياء، وسيدخل حياته مهاجر إفريقي معدم قادم من أحياء الفقر والحرمان، لا يملك شيئاً سوى الحياة، وسيلتقي الاثنان في منتصف طريق محفوف بثقافة عنصرية، وبجدران نبذ وفوقية، تمنع أحدهما من رؤية الآخر على حقيقته، هذه باختصار هي فكرة الفيلم الفرنسي الرائع «المنبوذون».

«دريس» شاب أسود فقير، وصاحب سجل إجرامي، وهو مطرود من منزل عائلته، سيجد نفسه فجأة في قصر المليونير فيليب، بناءً على طلب توظيف، وسيخضع لمقابلة يشرف عليها الثري نفسه، والذي سيختاره هو تحديداً ليكون الشخص الذي سيعتني به، ومن ثم ستتحول العلاقة إلى صداقة إنسانية عميقة، فدريس يمتلك الحياة التي لا يعرفها الثري فيليب

الذي يعيش في عالم من الثراء والموسيقى الراقية ولوحات كبار الرسامين، بينما تغرق روحه في مستنقع من الأشخاص المملين والتفاصيل الرتيبة ، بين جدران قصر باذخ وكرسي متحرك وابنة لا تعرف معنى الاحترام او الشعور بمن حولها .

سيجد فيليب في «دريس» حالة مختلفة ، تشبه الإنقاذ المفاجئ من غرق محقق ، تشبه الدخول في مغارة علي بابا ، وسيعيش معه حياة من التفاصيل المدهشة التي لطالما راودت خياله، كان يعيش حالة حب أفلاطوني عبر رسائل زرقاء يتبادلها مع امرأة لم يرها ولا يريدها أن تراه عاجزاً يتحرك على كرسي لكن « دريس حول الحكاية الخيالية إلى حالة حب واقعية حين رتب له لقاء مع المرأة بعد أن هيأه لهذا اللقاء الذي تزوجا على إثره، طار معه في فضاء الطبيعة عبر بالون ضخم، وتسكع معه على نهر السين فجراً، وقاد به سيارته الكامارو المهملة بجنون في شوارع باريس، وللمرة الأولى جعله يتحدث مع ابنته كأب من حقه أن يؤدبها بل ويضربها إذا لزم الأمر، وأن يختار ثيابه بذوق مختلف، ويتوقف عن شراء لوحات سريالية بأموال باهظة، وحين غادره عاش حالة حزن وتعاسة لا حدود لهما ».

الفيلم إنساني بامتياز، يضع يده على حقيقة أننا كبشر لا نعرف حدود

وطاقات أنفسنا، ما لم نقترب من بعضنا بعضاً، فهذا الاعتياد على تصديق الانطباعات السطحية والصور النمطية المتداولة والتعميم الظالم، يفقدنا فرص اكتشاف عوالم رائعة نحن في أمسِّ الحاجة إليها، بعيداً عن اعتقادنا واعتزازنا بما عندنا، وأننا يمكن أن نكتفي به، فأياً كان ما يمتلكه أحدنا فهو بحاجة إلى كائن آخر يكمله أو يضيف إليه.. على حد تعبير زميلنا القديم: «الإنسان كائن مستطيع بغيره»، فبأرجل وأيدي وطاقة ذلك الشاب المهاجر الأفريقي انطلق الثري الأرستقراطي نحو اكتشاف حياة، أقل ما توصف به، أنها رائعة.

obeikandl.com

(62)

حين يتأخر الوقت كثيراً

في حياتنا اليومية نكرر الكثير من الأمثال الشعبية عند الرغبة في تأكيد ما نقول، أو لإضافة مصداقية اجتماعية على أحاديثنا ، فالمثل الشعبي أو الأقوال المأثورة حتى تلك الكليشيهات والقوالب الكلامية الجاهزة التي نستدعيها من ثراثنا الشفاهي الخاص أو من ثقافات أخرى تلعب دوراً كبيراً في حياتنا الاجتماعية كتكريس القيم النبيلة أو الرومانسية التي يتناساها الناس عادة في صراع الحياة الشرس، فتعمل هذه العبارات المعبأة بالحكمة والايجاز على تقوية الروح المعنوية والشعور بالحيمية الحقيقية لمنظومة القيم والمثل العليا وهذا أحد أدوار الثقافة الخاصة بأية أمة، أوالموروث الثقافي

الاجتماعي بشكل عام، لكن الشيء الغريب أو غير المفهوم في أحيان كثيرة، هو أن بعضنا يكرر بعض الأمثال، أو الأقوال ذات الدلالة والمغزى، لكنه يفعل خلاف ما يؤكده أو ما يستدعي المثل لأجله !!

كنت أتابع فيلماً جميلاً، حول حكاية الشاب الذي يلتقي فتاة أحلامه فيشعر منذ النظرة الأولى أن هذه هي من يبحث عنها، فيبدأ في تلاوة طقوس الحب وقصائد الإعجاب حول عينيها وصوتها ورائحة شعرها، وأخيراً تقوده الخطى للارتباط بها ثم يتزوجان، وتبدأ الحقيقة في الانكشاف تدريجياً، وينسى الرجل رائحة البحر التي قال إنها تفوح من شعر الصبية قبل أن يتزوجها فيغرق في أمور أخرى، كما أن رائحة الفلفل الحارة التي تنبعث من صوتها، ينساها في المطبخ، ويبدأ بمغامرات أخرى، فقد صارت الصبية زوجته يجدها في انتظاره كلما عاد للمنزل مساء !!

الشاب في الفيلم افتتح مطعماً كان حلم حياته، وجعل زوجته طاهية فيه، وقد تألق اسم المطعم، وتزايد رواده بفضل أطباق ايزابيلا، إلا أن الشاب انشغل عنها بمغامرات نسائية قال إنه مضطر لها بسبب ضغوط العمل، كان دائماً ما يقول لها إن الإنسان لا يقدر قيمة الأشياء إلا حين تضيع منه، إلا أنه لم يفكر أن شيئاً سيضيع منه قريباً وعلى حين غرة، وبالتأكيد، فهو لم يتخيل أن

يكون ما سيضيع فجأة هو زوجته نفسها، فأين ستذهب هذه المرأة البسيطة التي أتى بها من القرية وأحبها وأدخلها مطبخه الخاص، لقد كان واثقاً من أنها إذا خرجت إلى الشارع، فإنها ستتعثر في خطوتها الأولى!

يتحول الحب إلى أنانية غالباً، كما يمنحنا ثقة كبيرة في أنفسنا تصل حد اللامبالاة أو الغباء أحياناً، فحين عاد ذات مساء إلى المنزل كانت ايزابيلا قد قررت الخروج تماماً، بحثاً عن حياتها ونفسها ونجاحها، تعثرت ولم تعرف كيف تتصرف، لكن المصادفات كانت تقف إلى جانبها، ولقد نجحت وصارت نجمة في عالم الطهي والإعلام، وحين عرف مكانها ذهب ليستعيدها، ويذكرها بالحب والأحلام والذكريات، لكنها كانت قد قايضت النجاح بالحب وكل الأحلام !! قالت لها الساحرة ستنجحين وتصيرين نجمة مرموقة وثرية وسيتهافت عليك المعجبون، لكن ذلك الحب سينتهي إلى غير رجعة، ستأخذه الجنيات وتطمره في أعماق المحيط ، ولقد وافقت، فلا شيء يأتي بلا ثمن أو يضيع منا بلا مقابل، هذه هي الفكرة الرئيسية، فحين نضحي بقيمة كبيرة لنحصل على هدف يراودنا، فإن علينا أن نفهم بأن المثل الشعبي القائل «من بغى شيئاً ترك شيئاً» مثل صحيح، وأن الإنسان لا يعرف قيمة الأشياء إلا حين تضيع منه، لكن الوقت ساعتها يكون متأخراً جداً !!

(63)

حين يكون الفرق بيننا ... قضية

عندما كانت تصف شقيقها الذي يصغرها بسنوات عدة في إحدى رواياتها الشهيرة، فإن الروائية الجزائرية أحلام مستغانمي تصفه قائلة: «كان ناصر يصغرني بخمس سنوات ويكبرني بقضية»، كانت تؤكد دائماً أن قضية الوطن/ الجزائر ظلت هي وحدها الفرق والأرق بينهما، فحرية واستقلال الوطن ظلا يحكمان حركة ناصر وحياته، بينما الوطن بالنسبة لآخرين لم يكن سوى «مكان» للعيش بإمكانهم استبداله بأي مكان آخر.

كان الوطن يسكن ناصر كنبضه، بينما الكثيرون من حوله يرتدون الوطن كمعاطف فاخرة تقيهم البرد لا أكثر، بينما الوطن ليس معطفاً ولا فندقاً

ولا مقهى على قارعة طرق الدنيا! كانت أحلام تتحدث عن ناصر شقيقها في الرواية التي تحكي في جزء كبير منها ملابسات ثورة الجزائر، والشباب الذي كان يحمل قضية هذا البلد، وكيف دارت الأيام وتقلبت الظروف والأحوال بعد الاستقلال، فصار الثوار نسياً منسياً، وتسلق جدار المشهد وواجهاته أشخاص صاروا أبطالاً من أوراق الصحف وأصوات مذيعات التلفزة وحبر المطابع، وكأنها بذلك تروي قصة الثورات الأبدية، ودور المناضلين الحقيقيين والمجهولين الذين يغيرون الوقت، ويحركون الأيام سريعاً باتجاه الغد، ساكبين من دمائهم وقوداً في محركات التغيير من دون أن ينتبهوا إلى لعبة حسابات الأرباح والخسائر، لكن هناك من ينتظر انتهاء المعركة دوماً ليجمع الغنائم بسهولة صارخاً انتصرنا وليس "انتصروا" ففعل الانتهازية سيحكم الأيام التاليات!

أما الذين يدفعون حياتهم وشبابهم وهم يحلمون بالحرية والاستقلال، فسريعاً جداً يحولونهم إلى مجرد كلمات حماسية للأغاني والأناشيد والروايات الرومانسية، إنهم يتحولون بعد نجاح الهدف واقتسام الغنائم إلى مجرد أرقام في حسابات الخسائر التي كان لا بد منها لنجاح الثورة، ألا تحتاج الثورات الكبرى إلى شهداء وضحايا وأبطال؟ إذن يكفيهم الخلود وأحضان

التاريخ، أما السياسة والحكم والمصالح، فلها أبطال آخرون سيخرجون فجأة من ثقوب خفية كانوا يختبئون وراءها بانتظار اللحظة الحاسمة وبفارغ الصبر ليقفزوا إلى الواجهة! وهذا ما كان وما حدث أمام أعيننا بدءاً بالعراق وانتهاء بكل مكان!

الملاحظ أنه في كل الصراعات الإنسانية التي تحرك الأحداث والتاريخ، فإن هناك من يدفع الثمن بصدق وإيمان، وهناك من يقفز على الكراسي بصدق وإيمان أيضاً، ولكن شتان بين الإيمانين، وللأسف فالذين يكسبون هم أبطال آخر المسرحية.

إن لهؤلاء ملامح وسمات نفسية خاصة وقدرة على التكيف والتلون وتحريك الخيوط، وهذه لا يجيدها كل الناس، فهل هي المصادفة من تحضرهم للمكان في اللحظة المناسبة أم أنها مخططات سابقة؟

مهم أن يكون ما نختلف حوله أمر بحجم قضية وطن ، فهي قضية تستحق أن نختلف لأجلها وعليها، لكن الإشكالية حين لا يعرف الناس كيف يختلفون ولماذا ولأي هدف ؟ أو حين يحولون خلافاتهم إلى بازار وسوق الرابح فيه صاحب الصوت الأعلى والشتائم الأسوأ، أو حين يتحول الخلاف الذي هو حق وظاهرة صحية وإنسانية إلى مزايدات مصالح،

وثارات شخصية ، ولعبة توزيع غنائم على الهواء مباشرة، عندها يسقط الهدف وتضيع القضية؛ ولا يعود أغلبنا يؤمن لا بقضية ولا بشعارات عادلة، تصبح أكبر القضايا عندها كيف يدبر الإنسان أقساط بيته وسيارته وفاتورة النادي الصحي أو عملية التجميل التي أخرها كثيراً !!

obeikandl.com

(64)

الصورة والأصل

حينما ظهر كتاب الناقد الإنجليزي المعروف بول جونسن «المثقفون» ثارت ثائرة الكثيرين عليه واعتبروه شخصاً متحاملاً وجلفاً في حديثه عن المثقفين الكبار في التاريخ الإنساني، شخصاً تعوزه الكياسة وينطلق من منظور كسر التابو أو الهالة المقدسة التي أحاطت بتلك الرموز الفكرية من أمثال جان جاك روسو وفولتير وشيللي وسارتر وفيكتور هوجو وديستويفسكي وغيرهم، فقد تحدث ناقد صحيفة الأوبزيرفر عن هؤلاء وغيرهم بشكل جردهم تماماً من تلك الهالة وكشف الكثير من اعوجاج سلوكياتهم ونفسياتهم وعن مقدار التناقض الأخلاقي الهائل بين الأفكار

obeikandl.com

العظيمة التي دعوا إليها وعرفوا بها وبين الواقع الذي كانوا عليه، لقد ارتبطت مفردة الثقافة في وعينا بالاستقامة والبحث عن الأفضل وعن المثالية والتفرد أو التميز، وفي اللغة فإن الثقافة ضد الاعوجاج، فثقف الشيء أي قوّمه وجعله مستقيماً، ولذلك فالمثقف هو صانع الأفكار ومروجها وهو الشخص الذي يعمل طوال حياته على الارتقاء بالأفكار ومن خلالها داعياً إلى الفضيلة والمثالية والارتقاء وكاشفاً عن المساوئ والأخطاء وباحثاً عن الخير وتطور المجتمع والإنسانية، هكذا كان المثقفون الكبار يدعون ليل نهار عبر الأفكار التي وضعوها والكتب التي نشروها والنظريات الأخلاقية التي روّجوها وأعادوا إنتاجها مراراً، لكن بول جونسن كشف في كتابه عن أن كل ذلك كان نوعاً من الخديعة مارسه هؤلاء على المجتمع!

الفيلسوف المعروف غرامشي كان من أوائل من قال إن لكل مجموعة اجتماعية مثقفيها الذين ينحصر دورهم في القيام بدور الهيمنة والسيطرة وتحقيق الانسجام داخل الجماعة تماماً كما كان يفعل الشاعر العربي قديماً داخل القبيلة مثلاً، فالمثقف لم يكن ملاكاً إذن وإنما كان واحداً من أدوات السيطرة وهو من خلال دوره ينسجم ويتماهى مع أصحاب السلطة أكثر مما يتماهى مع بسطاء المجتمع، من هنا يتهم المثقف بأنه صاحب توجه فردي

أو فوقي غالباً. الحقيقة فيما يخص المثقف هي أن الشخص لا يكون مثقفاً هكذا بلا دلالة أو تميز ما، إن المثقف الحقيقي هو ذلك الذي يحمل وعياً خاصاً ورأياً خاصاً، بل ورؤية خاصة للحياة والواقع والعالم، مع ذلك فإن الفيلسوف الفرنسي بيار بوردو يؤكد على أن هناك فجوة بي الخطابات والأفعال، مؤكداً بذلك على فكرة بول جونسن حول تناقض المثقف، كما أن بوردو طرح سؤالاً مهماً هو ادعاء كثير من المثقفين قيادة المجتمع فشكك في قدراتهم وأيديولوجيتهم واتهمهم بالتواطؤ مع مختلف أشكال السيطرة متفقاً هنا أيضاً مع جونسن الذي تحدث كثيراً عن النزعة البراغماتية المصلحية لدى كثير من المثقفين.

إن المثقف هو الشخص صاحب الوعي الخاص والرؤية الخاصة لكل ما حوله، وهو الشخص الساعي دوماً نحو التغيير للأفضل والداعي إليه بكل الطرق الإنسانية، لكنه حتماً ليس الأكثر حكمة أو قيمة من الآخرين، ولا يصح أن يتصرف كوريث لرجال الدين بالمعنى القديم للمصطلح بقدر ما يتوجب عليه أن يكون جزءاً من حراك المجتمع نحو الارتقاء للأفضل بتفعيل قوى الفكر والفن والثقافة.

(65)

ومن منا بلا أقنعة

حين تذهب عميقاً في الحديث عن دواخل النفس تصبح قريباً من كل إنسان، فجميعنا تسكننا نفس تحن لشرط إنسانيتها أياً كان ما يبدو في الخارج قاسياً أو معتماً، ولذلك فالحديث عن هذه النفس وتجلياتها، الذاكرة واحتيالاتها، القلب وتقلباته، الزمن وما يفعله، غالباً ما يستهوينا ويجمعنا، نحن لا نتخلى عن إنسانيتنا أو عفويتنا أو رقتنا حين نبدو في وهج النشاط وصراعات النهار الأزلية، نحن فقط نرتدي أقنعة الحاجة أو عدة «الشغل» كما يقال بالدارجة! نتخلى عن أحلامنا أحياناً؛ لأن الدنيا صعبة المنال لا تنال بالأحلام ولكن بالأموال والمصالح والعلاقات والبروباجندا «الدعاية»،

obeikandl.com

ولذا نؤلف أفلاماً صغيرة خلال نهارا تنا، فنبدو للناس من خلالها أننا كبار بما فيه الكفاية وناضجون جداً ولا سبيل لخداعنا أو تمرير الاحتيالات من خلف ظهورنا، نشحذ قوانا لتصل رسائلنا لمن يعنيه الأمر بأننا من الصلابة بحيث لا شيء يستدر عاطفتنا أو دموعنا أو يغير مواقفنا، فنحن عمليون وواقعيون لسنا حالمين أو رومانسيين أبداً، لكننا في حقيقتنا لسنا كذلك، ولكن شروط الأقنعة تفرض التزاماتها علينا! قلت لصديقة عزيزة يوماً، لماذا تجتهدين لتظهري أمام البعض أنك إنسان لا مبال، ساذج وغير جاد أو مثقف، مع أنني أراك عكس ذلك، وبالفعل فقد كانت من العمق وقوة الحجة وحِدة الذكاء بما يجعلني أتساءل لماذا تظهر عكس ذلك! فكانت تجيبني ذلك قناع ارتديه أمام البعض لأنه يريحهم أن يروني كذلك، أنا لا أتخلى عن ذاتي لكنني أتنازل لهم كي يشعروا بالارتياح في وجودي ، فبعض الأشخاص لا تحتمل خفتهم أو لا تطاق قوة شخصيتهم .. مثلي «كانت تقول» !!

حين نكون صغاراً نحلق بأجنحة من ورق ونجري بأحذية من ريح، نصل إلى آخر المدى في كل شيء، نذهب إلى حيث تأخذنا أقدامنا، نفعل ما يخطر ببالنا، لا نفهم معنى الوقت ولا معنى الموت ولا ماهية الألم، أقصى آلامنا حين نتعثر بحجارة الطريق ومنتهى سعادتنا حين نخرج إلى فضاء الأزقة متحررين

من الأوامر والنواهي، لا نحب أقنعة أمهاتنا ونخاف من براقع جداتنا «البراقع أقنعة في نهاية الأمر» وكلما كبرنا ثقلت أجسادنا عن الذهاب إلى آخر الشارع وثقلت أرواحنا عن احتمال أحلامنا، فنضعها جانباً متعللين بالظروف وصعوبة الأحوال، ونبدأ في اختيار الأقنعة!

تنتابنا حالة الفقد إزاء أصغر المواقف، وتهطل الذاكرة كسماء لا تعرف التوقف، هطول الذاكرة ينعش يباس القلب وينزع الأقنعة كلها ، فنحن نراكم أقنعة من كل الأشكال بقدر ما نراكم همومنا ونتخلى عن أن نكون نحن كما يجب أن نكون، لذا فربما يتحول القناع في لحظة ما إلى جزء منا أو يصير كلوننا في آخر المطاف ، عندها يكون الأمر قد انتهى ونظل نتحرك كأشخاص منفصلين عن مداراتنا الحقيقية ككوكب فقد مداره وخرج عن جاذبيته بشكل نهائي! ليس طفولة أو مرضاً أو سعياً للألم أن ننزع الأقنعة ونعود لذاكرتنا وأن نقلبها أو نبحث فيها، الأمر قد يكون مؤلماً، لكنه إنساني جداً في عالم يتحول كل لحظة ويسعى كباره إلى تحويلنا إلى مجرد أشياء تستهلك أشياء تمهيداً لتحويلنا إلى روبوتات أو كائنات آلية ، نحن حين ننفصل عن ذاكرتنا نكون مخلوقات آلية ويصير كل شيء متساوياً في أعيننا وأمام مشاعرنا !!

(66)

ما ذا فعل بنا تويتر؟

من خلال الكم الكبير من الدراسات الإعلامية ومن رسائل الماجستير والدكتوراه التي اطلعت عليها، خلال إعداد الدراسة الأخيرة حول أوضاع الصحفيين في الإمارات بدا واضحاً أن الإعلام الجديد أو إعلام المواطن كما يطلق عليه يحظى باهتمام غير طبيعي، في دوائر الباحثين والدارسين في الغرب وبدرجة أقل لدى نظرائهم في الشرق، والسبب يعود أولاً إلى أن الإعلام كحقل علمي وكاختراعات ووسائل في أساسه إفراز المجتمع الجماهيري الصناعي في الغرب، أما ثانياً، فبسبب نظرة التقييم العالية التي تولى للإعلام هناك لتأثيره وخطورة أدواره.

obeikandl.com

الإعلام الجديد، شبكات ومواقع التواصل الاجتماعي، الإعلام الاجتماعي، إعلام المواطن، كلها تقود إلى شيء واحد، هو الإعلام الاجتماعي الجديد: المدونات، المنتديات، اليوتيوب، الفيسبوك وتويتر وماي سبيس وغيرها، حيث تستقطب هذه المواقع كل نخب وشرائح وأفراد المجتمع بلا استثناء، فليس من الطبيعي اليوم أن لا تحظى بحساب على واحد من هذه المواقع، وإذا لم تدخل إلى حسابك مدوناً أو مغرداً ومتفاعلاً مع غيرك من المدونين والمغردين، فأنت لست موجوداً، أو أنت مفقود أو غائب عن ساحة الأحداث، فكل الأحداث اليوم ليست على قنوات التلفزيون ولكن على مواقع التواصل الاجتماعي، لذا كن مغرداً على الدوام لتثبت وجودك الفيزيائي أولاً والاجتماعي ثانياً!!

كثيراً ما قرأت على موقع تويتر هذا السؤال يوجهه مغرد لزميله أو لشخص يتابعه: لماذا لم نعد نراك على تويتر؟ أو أين اختفيت، لم نعد نقرأ تغريداتك منذ مدة؟ أو خيراً لماذا أنت غائب عن الأنظار؟ فأفراد المجتمع اليوم يلتقون ويتحدثون ويقيمون الدنيا ولا يقعدونها أحياناً في مجالس وصالونات تويتر، أكثر مما يسمعون أصوات بعضهم بعضاً عبر الهاتف، لقد صارت المحادثات الهاتفية والرسائل النصية شيئاً من مخلفات حقبة ما قبل طوفان تويتر، وسريعاً

جداً تحولت السلوكيات الاجتماعية وكذلك سريعاً جداً أدمن الناس هذه المواقع، حتى لكأنهم صاروا يقيمون في تويتر ويعودون إلى بيوتهم وحياتهم العادية في أوقات الفراغ منه! من أين اكتسبت هذه المواقع الاجتماعية وتحديداً تويتر هذه السطوة على أذهان وسلوكيات الناس؟ وقد يكون مفيداً لو تساءلنا ماذا فعل بنا تويتر وماذا فعلنا نحن به؟ ولكي نجيب على هذا الأول فإن السؤال يصلح لأن يكون إشكالية علمية لبحث علمي قائم بذاته، لكننا هنا نسجل ملاحظات سريعة فنقول إن هذا الإقبال غير المسبوق على تويتر وغيره سببه جوع الناس في المجتمعات العربية للحرية والتواصل والمعرفة، فحرية التعبير بعيداً عن الرقابة والإعلام الحر الذي يصنعه الإنسان بنفسه بعيداً عن الوصاية الرسمية كان ولا يزال حلماً عربياً صعباً بامتياز، كما أن التواصل الإنساني في مجتمعات الطفرة والثراء، يشكل هو الآخر مطلباً ملحاً قدمته هذه المواقع على طبق من أثير حتى وإن كان افتراضياً!!

تلبي هذه المواقع احتياجات إنسانية أساسية وحقوقاً ملحة ومعترفاً بها إنسانياً وعالمياً، وهذا الإقبال دليل على ذلك، لكنها تعطي مؤشرات واضحة أيضاً على مدى الخلل في نواحي الحياة الاجتماعية والإنسانية والتواصلية التي لا تستقيم حياة الإنسان من دونها !

(67)

يا سامعين الصوت !!

تصرفات بعض أهلنا العرب في بلاد الغرب تثير التوقف ، وتتسبب في مراكمة المزيد من الصور السلبية عن جنس العرب عموماً، فكلما دخلت فندقاً أو مطعماً أو مشيت في شارع أو جلست في مقهى برزت تصرفاتهم للعيان لا تخطئها أذن ولا عين، ولا أدري لماذا كلما برز سلوك مزعج من بعض بني جلدتنا تمثلت ما كتبه السعودي أحمد أبو دهمان في مقدمة روايته «الحزام» فقد وصف نفسه عندما ذهب إلى باريس أول مرة قائلاً «في باريس التي اختلست كثيراً من آثار العالم وحافظت عليها، كنت أشعر أحيانا أني نصب تاريخي».. في هذه المدينة احتميتُ بقريتي أحملها كنار لا تنطفئ

obeikandl.com

ألقي السلام « بصوت مرتفع كما كنا نفعل في القرية » وعندما اكتشفت أنهم لا يسمعون ألقيت السلام على السلام بصوت خفيض .

كتب أبو دهمان روايته «الحزام» كما يقول ليلقي « السلام بالصوت الذي يمكن أن يسمعه الفرنسيون إذ عرفت بعد سنوات عديدة أن الشعوب القارئة لا تسمع إلا الصوت المكتوب، سمعوا سلامي وردوا التحية بأحسن منها، رأيت « الحزام » في الواجهات، في البيوت، علقها بعضهم على جسده كما نفعل في القرية، اتسعت قريتي واستعدت السلام ». لم أقرأ هذا التعبير قبل ذلك « الشعوب القارئة لا تسمع إلا الصوت المكتوب»، تلك حقيقة، أما الصوت الصارخ بالحديث وبالسلام من على بعد نصف كيلومتر فإنه صوت غير مسموع وغير مرغوب كذلك إنه صوت مزعج ومسيء، ويستدعي منا بحثاً مطولاً في مبررات ارتفاع أصواتنا وفي البحث عن بدائل وحلول وطرق أخرى!! «نحن على حد علمي القبيلة الوحيدة التي تهبط من السماء ! نعيش في منطقة جبلية والسماء عندنا جزء من الجبال، في قريتي لا يسقط المطر كعادته بل يصعد منها إلى السماء» ..هكذا اعتقد أبو دهمان لفترة طويلة أو هكذا كرست النظرة الأسطورية للقرية شاعرية المكان في جبال سروات السعودية، لكن هناك من الشعوب العربية من لا

يزال يتحرك كأنه نصب تذكاري في بلاد العالم، كل ما فيه مثير للاستغراب ويدعو للالتفات والفرجة! أمر واحد لم أفهمه بعد: لماذا يتحدث بعضنا بصوت عال جداً في المطاعم والهواتف النقالة ولماذا يصر البعض في صالات الفنادق الفخمة على أن يفتحوا مواقع الأغاني وتسجيلات القرآن بأعلى ما يمكن وكأن الأغاني اختراع عجيب يريدون اطلاع العالم عليه ؟ تفسر بعض النظريات هذا السلوك الذي تشاركنا فيه بعض الشعوب ، حتى صرت انظر إليه كرقصة شعبية أو عزف منفرد على الطبل، على أنه آت من جذور غائرة في الصحراء، فالعربي بدوي بالفطرة، ترحاله دائم وبيوته متباعدة وهو يحتاج لأن يرفع صوته عالياً لأن الصحراء فضاء مترام يبتلع الصوت ويبدأ الصدى، أما الغربي فيعيش في مدن وقرى متراصة طوال تاريخه، لم يحتج لأن يرفع صوته لأي سبب سوى الحروب، بيوته متقاربة وقد جعل كل شيء في متناول يده كما أنه أسس لثقافة عدم الاحتياج لمن حوله، عاش قرب الأنهار ثم انتقل إلى مجتمعات جماهيرية مع بزوغ فجر الصناعة والمصانع، وحين اخترع جوتنبرج المطبعة، انتشرت الكتب والصحف وصار يقرأ كثيراً، والشعوب القارئة لا ترفع عينيها عن الكتاب ولا ترفع صوتها حين تتحدث لأنها تعتاد الهدوء حتى يصبح هذا طبيعة من طبائعها !!

(68)

حين تحتلك ... امرأة

هل يمكن لامرأة أن تهجر رجلاً عاشت معه 18 عاماً لأنها تعبت منه وتريد أن تشعر بالتحرر من عبء العلاقة به ؟ هل يمكن لهذه المرأة أن تعود لتموت من الغيرة بعد ستة أعوام من انفصالها عن ذلك الرجل لأنها عرفت علاقته بأخرى؟ لماذا وصل الأمر بها إلى درجة أن هذه المرأة الأخرى قد احتلت عقلها وجسدها حتى أصبحت تفكر بها بهوس مريض وتلاحق اسمها وتاريخها وتتخيل الأشياء العادية واليومية وحتى السخيفة التي تفعلها مع زوجها في كل لحظة..! إنها تكاد تجن لأن فرشاة أسنان هذه المرأة تتشارك الكأس نفسه مع فرشاة أسنان زوجها أو من كان زوجها ؟ إلى هذه

الدرجة وصل بها التفكير في أدق التفاصيل ولأن الأمر وصل إلى هذا الحد فقد خرج عن كونه مجرد غيرة إلى حالة احتلال حقيقية تمارسها تلك المرأة الأخرى التي حلت مكانها في حياة زوجها !

«الاحتلال» هو العنوان الأكثر دقة – وليس الغيرة– للرواية الأحدث للكاتبة الفرنسية المعاصرة " آني إرنو " التي تشكل علامة فارقة في المشهد الثقافي والإبداعي الفرنسي والتي ينتظر قراؤها حول العالم آخر ما تجود به قريحتها بفارغ الصبر لأنهم يعلمون تماماً أن هذه الروائية لا تدفع لهم بعمل عادي أو متداول، بقدر ما تضعهم في كل مرة تدفع فيها بعمل جديد أمام صدمة فكرة تبدو لصغرها غير جديرة بالالتفات، في حين تتحول في ماكينة إرنو الابداعية إلى عمل لا يمكنه سوى أن يختطف الانتباه، ويسيل حبراً لاحد له من أقلام النقاد ومحرري الأقسام الثقافية في صحف العالم، وفي روايتها الصغيرة جداً «الاحتلال» والتي لا تتجاوز الستين صفحة فإن الغيرة القاتلة المدمرة هي المحور والفكرة التي تدور حولها وسوسة وتخيلات الراوية التي تطلقها في سرد أقرب إلى السيرة الذاتية !

عرفت عن الرواية بطريق الصدفة ، لكن مجرد أن تتموضع الرواية بين يديك فإن حجمها الصغير جداً يوقعك في الالتباس، فأي رواية تثير كل هذه

الضجة وهي لا تكاد تتجاوز الستين صفحة ؟ نحن الذين اعتدنا على فكرة أن الرواية لا تكون رواية إلا إذا تجاوزت صفحاتها الثلاثمائة صفحة ، إلا أن «آني إرنو» أستاذة فن الاختزال وتكثيف المعنى بلا منازع، فإنت معها في كل وساوس وقلق روحها المحتلة تماماً بتلك المرأة الأخرى، لا يكاد يفوتك أدق الأفكار الكبيرة والصغيرة والتافهة والسخيفة وحتى المبتذلة، من دون ترهل أوحشو وثرثرة، من ذلك الذي يجعل صفحات كثير من الأعمال الروائية متشابهة حد الملل. الفكرة الأكثر روعة والتي جعلت المرأة التي تسرد حكاية احتلالها من قبل غريمتها التي احتلت مكانها في حياة زوجها هي أنها في البداية اتبعت طريقة الجواسيس في تعقب خطوات غريمتها – التي جعلتها هي غريمتها في الحقيقة – ولكنها تنتبه لأمر أثار دهشتها وهي أنها كانت تدون كل ما تفكر فيه وكل ما يخطر ببالها حول تلك المرأة، وتدريجيا أحست بأن ذلك التدوين يستهلكها ويستثيرها لدرجة أنها تخلصت بواسطته من جنونها بتلك المرأة، لقد تناست اسمها وملامحها وجرحها الغائر في عمق قلبها جراء فقد زوجها لصالح امرأة أخرى، صارت تمعن في الكتابة لتنسى وتستشفي بها، أكثر من كونها تكتب لتحفظ ذاكرتها أو ما تمر به وهو ما أطلقت عليه الكاتبة مسمى الاستشفاء بالكتابة .

(69)

احتفاء بالكتابة

في أقصى الزاوية من جهة المدخل، تستقر الطاولة التي اخترتها لمجلسي اليومي، حيث أشرب قهوتي، وأطالع آخر الأخبار عبر الإنترنت، هنا في مقهى الفندق العتيق جداً الذي كتب أصحابه على مدخله إنه أقيم عام 1912 في المنطقة التي تشرف على جبال كروشنا في أقصى شمال جمهورية التشيك على الحدود الشمالية الغربية مع ألمانيا.

تغفو المدينة على المطر، وتصحو على الغيم، تتوسد الجبال، وتشاكس الغابات، وهذا يعني أن الفندق الذي أسكنه يعيش سيمفونيته منذ أزمنة طويلة، ويكمل اليوم مائة عام على إنشائه، وأن قوافل من البشر قد عبرت

obeikandl.com

بوابته، ومشت في ممراته، وسكنت حجراته الكثيرة.

الغرب بشكل عام يحتفي بالتاريخ والتأريخ، ويعتني بتدوين أحداثه، وتفاصيل يومياته، يكتب الأوروبيون كما يتنفسون، وهم من جعل ارتفاع معدل إنتاج الكتب وساعات القراءة اليومية للفرد وللأمة مقياساً للتنمية الإنسانية، المعترف بها عالمياً، فحين يريد الغرب أن يعير أمة أو بلداً بأكثر الرذائل الحضارية من وجهة نظره، فإنه يعيب عليها تدني منسوب القراءة بين أفراده، وقلة إنتاج الكتب فيه سنوياً. إن ارتفاع الناتج القومي من الكتب وارتفاع معدل القراءة بين الأفراد معيار تحضر لا يقل أهمية ودلالة عن ارتفاع الناتج القومي من الذهب أو الدخل القومي من صناعة السيارات أو البترول إن لم يتفوق عليها.

يكثر تردد العرب على المكان الذي أسكنه هذه الأيام، وهم يأتون للاستشفاء والتمتع بالطقس البديع، وكما يقول العاملون في الفندق فإن مجيء العرب إلى هنا يعود إلى سنوات طويلة ماضية، مع ذلك فإنني حين قلبت صفحات كتاب الزوار الذي وجدته في مكان قصي من المقهى لم أجد فيه سطراً دونه زائر عربي حتى ولو بطريق الخطأ، بينما استوقفتني الصفحة الأولى من الكتاب الضخم، كانت صفحة صفراء تآكلت أطرافها بشكل

واضح، وقد تحركت من مكانها لانقطاع الخيط الذي يحكم ربطها ببقية الصفحات، وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من قراءة كلمة واحدة إلا أن التاريخ المدون في أسفل الصفحة سمرني في مكاني!

بدت الكتابة في كل الصفحة بحبر أسود واضح ما ساعد على صمود الكلمات في وجه الزمن، بينما رسمت كلمات العنوان، "تانجو ياخيموف" بخط جميل ومختلف، كما بدا أنه إهداء إلى المنطقة، وهو عنوان موسيقي بامتياز؛ لذا جاءت السطور التالية له جملاً موسيقية من السلم الموسيقي، ما يوحي بأن كاتب الصفحة الأولى ملحن أو مؤلف موسيقي.

الأسطر العشرة التالية مكتوبة بلغة تشيكية لم أفهم منها كلمة واحدة، ثم الاسم لم استنتج إن كان يعود إلى رجل أم امرأة، وأما التاريخ فكان 14 مارس 1955، أي منذ 57 عاماً، فأي صور ستتداعى في مخيلتك ساعتها؟ تساءلت فقط فيما إذا كان من كتب هذا التانجو الجميل ما زال في صحة جيدة!!

قلبت صفحات الدفتر الضخم، مررت بتواريخ وسنوات وأحداث، أحالني كل تاريخ إلى حدث جلل، وإلى مناسبة لا يمكن نسيانها، فذلك الذي وضع تاريخ أغسطس 1968 أخذني مباشرة إلى تلك الليلة التي لا يمكن لأهالي براغ نسيانها حين اجتاحت دبابات الروس عاصمة بلادهم

ليلة 20 أغسطس من عام 1968 لتسحق أزهار الربيع الأول الذي أراد أن يتفتح في براغ يومها..

يا الله كم هي صعبة الذاكرة والكتابة والتاريخ، لذلك لا يكتب العرب، فمن بين كل صفحات الدفتر الضخم لم أعثر على تدوينه عربية واحدة، استوقفني الأمر، وأثار في رغبة أن أكون المدون العربي الأول، وبلغة عربية صرفة.

obeikandl.com

(70)

سر المطر

صباحاً ومن دون موعد محجوز على جدول الزيارات، يصبحنا أجمل الزوار: المطر، ينهمر علينا رحمة وبهجة وابتسامات ومسرات يبدو الناس في صباح المطر مختلفين تماماً عما كانوا في مساء اليوم السابق، تخرج كل الطفولة التي في دواخلهم، يعودون كصغار الأمس، يقفون تحت السماء، يفتحون أيديهم، يكشفون رؤوسهم، يتبللون ، يصرخون فرحاً، يرقصون ويعبثون معه، يشكرون الله كثيراً، ويهنئون أنفسهم، وبعضهم بعضاً، يكونون كمن يمارس طقس تطهر تحت مزاريب السماء، او كمن يفتح أبواب الروح لتدخلها فيوضات السماء النورانية، كان منبع فرحهم ذاك اليقين

obeikandl.com

الجميل بأن رحمة الله قاب قوسين أو أدنى منه، تقفز قصيدة السياب إلى ذهني، وهو يصرخ «مطر، مطر، مطر»، وكلما انهمر المطر بعد غياب تلوح هذه القصيدة في خاطري حيث يقول: كأن أقواس السحاب تشرب الغيومْ وقطرةً فقطرةً تذوب في المطر ... وكركر الأطفالُ في عرائش الكروم، ودغدغت صمت العصافير على الشجر أنشودةُ المطر ...مطر .. مطر ... مطر تثاءب المساء، والغيومُ لا تزالْ تسحُّ ما تسحّ من دموعها الثقالْ .

مطر ...مطر ... مطر، وليته لا يتوقف المطر، فوقعه لا يوصف وتأثيره كالسحر، وفرحة الناس به تشبه يوم عيد، تصير تحيتهم مطر، ولغتهم مطر، وأحاديثهم، وحركتهم كلها تدور في فلك المطر، يصيرون كأنهم بشر آخرون يعيشون على كوكب المطر، يجهزون سياراتهم ليخرجوا كأنهم يرتبون مواعيد غرام في الصحراء، أو هناك عند تخوم الجبال لملاقاة حبيب جاء بعد غياب طويل، يهاتفون بعضهم، يرتبون مواعيد ولقاءات، وسهرات، وجلسات شاي وقهوة وزنجبيل وزعتر، إنها طقوس المطر، إنها تفاصيل المطر الصغيرة، الحميمة، التي نعرفها جميعاً ونحبها جميعاً .

"مبروك عليكم الرحمة"، جملة يظل صداها يتردد طيلة الوقت، يقولها الكبار، العجائز، الشباب، والصبابا، الرحمة شقيقة المطر، ولأن الرحمة

هينة، لينة، شفيفة، رفيقة، رطبة، وناعمة كما توحي حروفها، ولأنها أولاً وقبل كل شيء اسم من أسماء الله الحسنى: الرحمن، الرحيم، لذلك، فالمطر يعني للناس هنا – في الصحراء تحديداً – الكثير الكثير، أكثر مما يعنيه لأي أناس آخرين في أي مكان آخر، لذا فقد توقعت أن تسألني الفتاة الفلبينية التي تعمل عندي: لماذا تفرحون هكذا بالمطر، فعندنا كل يوم يسقط المطر والناس تعاني كثيراً؟، قلت لها: ألا تفرحين إذا جاءك صديق عزيز طال انتظارك له، أومأت بنعم، فقلت لها هذا هو السبب!

يذكرني المطر ببقاع كثيرة في هذه الدنيا أشد الرحال إليها أنشد المطر، وأظل مشدودة إلى النافذة ومقعد الشرفة بانتظاره، فإذا توقف أظل زمناً املأ صدري برائحة المكان بعد رحيله، وأخرج إلى طرقات المدينة وأرصفتها المبللة أشم رائحة الحبيب الذي ذهب: فرائحته تظل عالقة في الطرقات والأرض، والمراكب الراسية في البحيرة، وسياج الحديقة وعشبها، وكراسي المقهى وأعمدة النور الباردة، أتذكر أن هذه الرائحة هي نفسها التي يتركها المطر إذا هطل في كل مكان، هذه الرائحة هي سر المطر الخفي .. إنه أحد أجمل وألذ الأسرار.

صباحنا مطر، ورائحة مشبعة بالخصب والعشب والرحمة.